الفصل الخامس

الفلسفة بالمعنى الخاص

"الحقيقة عسيرة المنال لا تنال إلا بتضافر الجهود"

(أرسطو)

جناح التأمل

حدثتكم عن الحكمة الشعبية، تلك الفلسفة الكامنة في ضمير العامة والكتاب المستنيرين، وبقى أن أحدثكم عن الفلسفة كما نفهمها من كتب الخاصة، ولست أعني بالخاصة غير الفلاسفة الذين ورد ذكرهم في تاريخ الفكر.

لا يقف الفيلسوف في تأمله عند حد رد الظواهر الطبيعية التي يدركها بجوارحه إلى عللها وأسبابها القريبة، ولا هو يقنع باستخلاص العبر والعظات المتناثرة شأن حكماء الشعب، إنما هدفه الذي لا يفارقه أن يعيد تنظيم العالم بل الوجود بأسره على أساس معقول؛ العالم كما تدركه حواسه يتكون من أجزاء لا حصر لها، تنسجم أحياناً وتتنافر في كثير من الأحيان، يأبى عقله إلا أن يرد الكثرة إلى الوحدة، يرد الظواهر جميعاً إلى علة واحدة ليس من بعدها علة، ويأبى عقله إلا أن يحيل الفوضى البادية في الواقع إلى

وحدة منسجمة يتصورها تصوراً منطقياً. من أجل هذا نشأت المذاهب الفلسفية التي أشرت إليها في حديث سابق، وما كانت في حقيقة الأمر غير محاولات عقلية قام بها الفلاسفة لتصور الوجود تصوراً معقولاً يتفق مع العقل ويفسر له كل ما يجري في الكون من أحداث، بحيث لا يترك ثغرة دون أن يملأها بتفسير يستمد من المذهب. ومن أجل هذا لم يقنع الفيلسوف بدراسة العالم الموضوعي البادي لحواسه كما يقنع العلماء؛ وكيف يقنع وكثير من الأمور التي تجري في عالمنا لا نجد لها تفسيراً في هذا العالم المحدود؟!

إذن، فليحلق فوق ظواهر الطبيعة وليتجاوزها إلى ما وراءها، إلى "ما وراء الطبيعة" لعله يجد التفسير الشافي أو السر الخافي. ولا يزال الفيلسوف يعلو على جناح التأمل حتى لا يعود يميز التفاصيل التي يغرق فيها العامة، ولا يعبأ بالروابط العلية القريبة التي تشغل العلماء، إنما يرى الكون في مجموعه كلا واحداً متكاملاً، فيكب على الأمور العامة يتفحصها بمنطق العقل الذي قد يتفق مع منطق الواقع التجريبي لدى بعض الفلاسفة الواقعيين، وقد يتعارض معه لدى بعض المثاليين منهم.

الحركة ولواحقها

أوضح ذلك بمثال: كل كائن طبيعي لا يثبت على حال واحدة، بل تطرأ عليه في كل لحظة تغيرات لا حصر لها من حيث تركيبه وما يحوي في بنيته من تفاعلات كيميائية، وما تدفعه إليه العوامل الطبيعية من أفعال،

وما تثيره فيه البيئة من سلوك وتصرفات، وبوسعنا أن نمضي في تعداد مظاهر التغير دون أن نتوقف. لا يعني الفيلسوف أن يقف عند هذه الظواهر المتغيرة، بل هو يتأمل التغير في ذاته بصرف النظر عن الأمور المتغيرة. يستخلص من عالم الطبيعة فكرة الحركة بوجه عام. فيتساءل: هل الحركة البادية لي حركة ظاهرية توهمني بها الحواس المتقلبة المتغيرة؟ أم أن كل وجود يمضي ويعقبه وجود آخر لا استقرار له؟

أجاب "هرفليطس" الفيلسوف الطبيعي القديم: لا شيء إلا الحركة الدائمة، التجدد المستمر، الأشياء تزول ولا شيء يبقى غير الحركة الجارفة الشاملة. ويحس هرقليطس– وقد يشاركه هذا الإحساس غير قليل من المفكرين– أن الإنسان القائم في هذا الخضم الهائج المائج لا يستطيع أن يعلم شيئاً لأنه قبل أن يصير إليه يكون قد مضى وصار على حال غير الحال، كل شيء بالنسبة إليه زائل قبل أن يعرفه. وهكذا قد تفضي بنا نظرية التغير المستمر إلى نظرية أخرى في المعرفة الإنسانية، عجز العقل الإنساني عن الوصول إلى حقيقة ثابتة عامة، ولا سبيل إلا إلى حقائق متغيرة بتغير الأشياء والأشخاص، فالفرد مقياس كل شيء: ما يراه حقاً فهو حق بالنسبة إليه وما يراه غيره حقاً فهو حق بالنسبة إلى هذا الغير، فلا يطمعن الإنسان إذن في علم أيا كان لأن العلم لا يقوم بغير الحقائق الكلية الثابتة رغم تغير الموجودات الفردية.

لنعد ثانية إلى عالم الواقع لعلنا نصل إلى فلسفة تدحض فلسفة التغير المستمر. يطرأ على الإنسان منذ طفولته، بل منذ كان نطفة في قرار مكين،

تغيرات متعاقبة حتى يكبر ويشب عن الطوق ويصير شاباً فكهلاً فشيخاً؛ ولكنه رغم هذه التغيرات جميعاً الإنسان الذي لا تختلف طبيعته مهما اختلفت الأفراد الذين تصدق عليهم هذه الكلمة. ألا يعني ذلك أن التغير الذي يصيب الفرد في مظاهره لا يمس وجوداً يكمن وراء الظواهر، ذلك هو جوهره أو ماهيته الثابتة الواحدة في جميع الأفراد وفي الفرد الواحد في جميع الظروف؟

الحركة إذن تنال الظواهر دون الجواهر والأعراض دون الماهيات. وما الظواهر والأعراض وجوداً حقا، إنما الوجود الحق الجواهر والماهيات الظواهر والأعراض كاللون والشكل والحركة والطعم والحجم والثقل الخ... ندركها بحواسنا، أما الجواهر والماهيات فنستنتجها ونستنتج صفاتها بالعقل وحده الذي يدرك ما وراء الواقع الملموس. والخلاصة التي تخرج بها أن الوجود الحق ليس حركة وتعدداً، ولكنه وحدة وثبات، وأن العلم ممكن طالما هنالك شيء ثابت بوسع الإنسان أن يشير إليه. يذهب بعض الفلاسفة هذا المذهب فيؤمنون بالمحسوس، ويؤمنون بالمعقول. يؤمنون بالوجود المادي، ويؤمنون بوجود لا مادي نسميه روحياً أو عقلياً. ويرون أن معرفة الوجود المادي بحواسنا توصلنا إلى إدراك الوجود العقلي بعقلنا أي بالاستدلال المنطقي، ولكنهم يعتبرون العلم الحق هو العلم العقلي. ولكن فلاسفة آخرين يغالون في النزعة العقلية المثالية فلا يكتفون بتفضيل الوجود الروحي على الوجود المادي، والمعرفة العقلية على المعرفة الحسية، بل ينكرون الوجود المادي إطلاقاً.

فيعتبرون العالم الطبيعي الذي نحيا فيه، ونضطرب في جنباته مع كائنات وأشياء ندركها ونحققها ونتعامل وإياها، يعتبرون هذا العالم أوهاماً هيأتها لنا حواسنا الخادعة. ولا يقرون بوجود غير وجود الأفكار التي نعقلها بأذهاننا دون أن نحققها بحواسنا. من هؤلاء: بارمنيدس وأفلاطون في الفلسفة القديمة، وباركلي وهيجل في الفلسفة الحديثة.

غاية الوجود

يتساءل الفيلسوف: هل الحوادث تسري، والكائنات تطوى وتنشر على نحو اتفاقي؟ هل الكائنات نتجت عن مجرد تجمع ذرات بعضها إلى بعض، بفعل الحركة وحدها، وبمحض الصدفة، دون تدبير سابق ودون غاية مرسومة؟

يجيب الفلاسفة الآليون الماديون بالإيجاب،فالوجود في حسبانهم، مادة متغيرة من تلقاء ذاتها، ليست في حاجة إلى مدبر من طبيعة أخرى، ولا هي تتغير وفق غاية معينة: الجماد، والنبات، والحيوان درجات متفاوتة لمادة واحدة، تتخذ أشكالاً مختلفة، لتفاوتها في التعقيد والتركيب؛ وكل وظيفة من وظائف هذه الموجودات، مردها في النهاية إلى التغييرات الكيمائية والفسيولوجية، التي تطرأ على العناصر الأولية التي تتركب منها. فلا شعور، ولا عقل، ولا روح.. وهكذا تستولي النشوة الآلية على أحد الفلاسفة فيصيح: "أعطني مادة وحركة، أخلق لك العالم".

بيد أن فيلسوفاً مثل أرسطو يلمس لطول معاينته موكب الكائنات، ومجرى الظواهر الطبيعية، وتطور الأحياء، نظاماً وتناسقاً وتماسكاً في العالم الطبيعي. ويفحص التفسير الآلي للوجود فيقر بصحته فيما يتعلق بالجمادات، ولكنه قاصر عن تفسير الحياة في الأحياء. وظائف الكائن الحي خاصة العليا منها كالشعور والتفكير لا يمكن تفسيرها بحركة المادة فحسب. لابد إذن من وجود مبدء آخر يفسر هذا النظام وهذه الوظائف: ذلك هو العقل.

الكون في نظره لا يخبط في سيره خبط عشواء، ولكنه يسير وفق نظام وخطة مدبرة نحو غرض مقصود. كل كائن ينطوي على غاية، يكشف عنها تغيره أو نموه المطرد حتى يحققها: البذرة تنطوي على الشجرة، والجنين ينطوي على الإنسان المكتمل، والسحاب ينطوي على المطر المنهمر، والكون في مجموعه ينطوي على غاية كبرى يهدف إليها، غاية مبثوثة في جنباته، هي الحافز لتطوره وترقيه، غاية لولاها ما كان غير السكون الأبدي والصمت المقيم، تلك الغاية أو المثل الأعلى هي "الله" الله هو الكمال المطلق الذي يسعى الكون إليه دون أن يبلغه، ويقترب منه في تطوره دون أن يصل إليه، هو الفكرة التي يعقلها الكون ويتعشقها، وبتعبير أرسطو الشاعري "الله معشوق ومعقول".

العالم في نظر الفلسفة الآلية آلة كبرى صماء لا ترمى إلى هدف ولا تفترض عقلاً يديرها. فإذا كانت الكائنات تنتظم سلسلة تطورية، فما ذلك إلا لتفاوتها في درجة التعقيد والتشابك والتعدد في عناصرها. ولكن أرسطو

يرى استحالة وصف شيء بأنه أرقى من شيء ما لم يكن لدينا مقياس للرقى، واستحالة القول إن العالم يرتقي ويتطور، ما لم نفرض غاية يتجه إليها، فالقرب منها تقدم، والبعد عنها تراجع. فلا معنى للتقدم إلا أن يكون تقدماً نحو غاية. ولما كانت الغاية المعشوقة معقولة لا محسوسة، روحية لا مادية، كان أرقى الكائنات هو الإنسان، لما فيه من طبيعة عقلية مسيطرة على قواه الطبيعية؛ وكان هدف الإنسان وواجبه الأسمى أن يغلب العقل على وظائف البدن، ويحكم الخير الذي يتصوره العقل، على الخيرات المؤقتة التي تسعى إليها حواس البدن. وبذلك يخرج أرسطو من فلسفته الغائية في مجال الطبيعة وما وراء الطبيعة، إلى فلسفته المثالية في مجال الأخلاق.

العناية الإلهية

ما زلنا مع الفلاسفة نتتبع معالجتهم لمشكلة الحركة، وقد رأينا كيف تأذوا من التفكير في طبيعة الحركة بوجه عام إلى التفكير في طبيعتها من حيث الفوضى أو النظام. بقيت مشكلة أخرى مرتبطة بالحركة، هي أنه إذا افتر ضنا وجود الله فما علاقته بالكون في حركته؟ أهي علاقة الخلق من عدم والإبداع من لا شيء؟

أنكر اليونان جميعاً فكرة الخلق، فالعقل اليوناني لم يستطع أن يتصور خروج الوجود من عدم، لم يستطع تصور الفراغ المطلق والخلاء اللانهائي ثم الإله يبدع كوناً من لا شيء. إنما الله موجود منذ الأزل، والمادة قديمة في

غير تعين أو تنظم، والله هو الفنان الذي عينها ورد الهباء وجوداً نظيماً، وأحال الفوضى المائعة صوراً منسقة متماسكة، وذلك رأى أفلاطون. أما أرسطو فالله عنده هو المحرك الأول الذي يدفع العالم دون أن يمسه، ويثيره إلى الحركة دون أن يتدخل في أحداثه: يدفعه ويثيره كعلة غائبة، أي كغاية يعشقها الكون ويسعى إلى تحقيقها بمقتضى الضرورة الطبيعية دون أن يتنزل الله من عليائه، أو يخرج عن سكوته الأبدي. والكون ينطوي على مختلف القوى والإمكانيات التي تضمن له الاستمرار في الحركة حتى يحقق كماله المطلق طالما هو يتأمل الله ويعقله ويعشقه.

ألا يعني ذلك أن أرسطو أنكر عناية الله بالعالم، ونزهه عن التدخل في شئونه؟ في حين ينقض أفلاطون هذا الرأي ويرى أن إنكار الله أهون من إنكار عنايته مع الإيمان به. إنما الله عنده معنى بالعالم بخلاف ما يدعيه السوفسطائيون محتجين بنجاح الأشرار. ولكن كيف تتفق عناية الله بالعالم وما يجري فيه، مع ما يزخر به من شرور أخلاقية وطبيعية؟ يجب أفلاطون:

"إن ساعة الأشرار آتية لا محالة. أما الشر الطبيعي فما هو في ذاته إلا نقص في الوجود أو خير أقل؛ النقص تضاؤل للكمال، هو ضد يتميز به الخير كما يتميز الصدق بالكذب، لم يرده الله بل سمح به فداء للخير الفائض على العالم، ويستحيل أن يكون العالم المصنوع خيراً محصناً فيشابه نموذجه الدائم، هو إذن ناقص ولكنه أحسن عالم ممكن"[١].

---

[١] تاريخ الفلسفة اليونانية تأليف الأستاذ يوسف كرم.

تلك مشكلة العناية الإلهية أنكرها أرسطو وأكدها أفلاطون ووقف فلاسفة الإسلام منها موقفاً وسطاً: فالعناية الإلهية لا تنال الجزئيات بل الكليات، الله تعالى عن الاهتمام بالحوادث الجزئية التافهة، إنما عنايته تشمل النظام الكوني في مجموعه، السنن والقوانين العامة التي تنتظم الأشياء جميعاً الجليل منها والحقير، لنقارن هذا الرأي بقول أفلاطون "عناية الله تشمل الكليات والجزئيات أيضاً بالقدر الذي يتفق مع الكليات، ونحن نرى الطبيب يراعي الكل قبل الجزء، والفنان يدبر أفعاله على مقتضى الغاية ويرمى إلى أعظم كمال ممكن للكل فيصنع الجزء لأجل الكل لا الكل لأجل الجزء، كذلك حال الصانع الأكبر، فإن تذمر الإنسان فلأنه يجهل أن خيره الخاص يتعلق به وبالكل معاً على مقتضى قوانين الكل"[١]. فلسفة فيها رض عميق، وبهجة، وتفاؤل، لأنها تتصور الكون متكاملاً متناسقاً لا محل فيه للمسخ والشذوذ، والنقائص والشرور. فلسفة لم يؤمن بها أفلاطون وحده. بل نراها في جوهرها لدى أوغسطين القديس والفيلسوف المسيحي، وابن سينا فيلسوف الإسلام، وديكارت أب الفلسفة الحديثة، ثم ليبنتز تلميذه الذي قال "ليس في الإمكان أبدع مما كان".

---

[١] تاريخ الفلسفة اليونانية تأليف الأستاذ يوسف كرم.

اللغز الأكبر

يقول سوفوكل في قصة أنتيجون على لسان الجوقة التي تنطق بحكمة الدهور:

"لقد ملئ العالم بالمعجزات، ولكن لا أشد إعجازاً من الإنسان". وإلى هذا المعنى قصد سوفوكل حين قص علينا ما كان من أمر أوديب مع أبي الهول، فرسم صورة رمزية رائعة للغز الذي أعي العقل حله وأعني به الإنسان:

"روعت مدينة ثيبه بخطر داهم ونكر مبين. فهذا كائن غريب قد هبط عليها من السماء أو نجم لها من الأرض، جاءها من حيث لا تعلم على كل حال، واستقر غير بعيد من المدينة على صخرة مرتفعة يرصد من يمر به من الناس، فيلقى عليهم لغزه الغريب:

ما كائن له صوت واحد، يمشي على أربع إذا أصبح، وعلى اثنتين إذا زالت الشمس، وعلى ثلاث إذا أقبل المساء؟... والناس جميعاً يعجزون عن حل الإجابة ولا يجدون حلاً لهذا اللغز، وهو يعاقبهم بالموت على هذا العجز والإخفاق. وقد عظم الكرب، وعم البلاء، وامتلأت قلوب أهل المدينة خوفاً ورعباً، حتى اضطر كريون أخو الملكة جوكاست والناهض بأعباء الملك بعد قتل لايوس أن يذيع في أقطار الأرض أن من أراح المدينة من هذه المحنة فله تاجها وله الملكة زوجاً.

وقد سمع الفتى بأنباء هذا الكائن الخطر، وبهذا الوعد الرائع الذي يبذل لمن ينقذ منه هذه المدينة البائسة، وهو قوى الجسم والنفس، ذكي القلب، حديد الفواد، بعيد الأمل، شديد الطموح، فيقبل على أبي الهول يجرب ذكاءه وقوته، ويغامر بحياته في سبيل المجد والملك. وأبو الهول يلقي عليه السؤال فيجيبه الفتى بأن الإنسان هو الذي يمشي على أربع إذا أصبح لأنه يحبو في الطفولة، ويمشي على اثنتين إذا انتصف النهار لأن قامته تعتدل وتستقيم إذا شب، ويمشي على ثلاث إذا أقبل المساء لأنه ينحني على العصا إذا أدركته الشيخوخة، وقد أفحم أبو الهول وألقى بنفسه من أعلى الصخرة فمات"[١].

تلك قصة أوديب مع لغز أبي الهول الذي أعيا مدينة بأسرها، يطيب لي عندما أتأمل مشاكل الإنسانية، وأسرارها المحيرة أن أتمثلها، وألح في تمثلها حتى يهيأ لي أن أوديب "الذكي القلب، الحديد الفؤاد، البعيد الأمل" هو العقل الإنساني الطامح إلى كشف أسرار العالم وحل ألغازه، فيكتب له التوفيق في كثير منها، غير أن لغزاً كبيراً يعيبه حله هو الإنسان بما ينطوي عليه من أسرار تستعصى على الحل، وسرعان ما تتجسد أسرار الإنسانية العاتية في صورة أبي الهول الرهيبة.

وإن القارئ ليتفق معي في هذا التصور خاصة إذا علم أن العقل لم يتعرض للمشاكل الفلسفية المتعلقة بالإنسان، إلا بعد أن قطع شوطاً طويلاً في حل ألغاز العالم الخارجي، وبعد أن مرن على التأمل فيما عداه، فبدأت

---

[١] طه حسين في مقدمة الترجمة العربية لقصتي أوديب، ثيسيوس تأليف أندريه جيد.

الفلسفة في ربيع الفكر اليوناني طبيعية تكلف بالعالم الطبيعي وما قد يكمن وراءه من وجود محتمل، شاء اليونان تسميته الميتافيزيقا أي ما راء الطبيعة. ثم عرجت على لغز أبي الهول، على الذات الإنسانية التي تعرف وتسعى إلى الحقيقة، والتي تحس وخز الضمير وتلزم القانون الأخلاقي، والتي تهفو إلى الجمال وتتعشقه، والتي تسعى طائعة أو مدفوعة إلى الانتظام في مجتمع يضم ذوات إنسانية أخرى، عرجت الفلسفة على هذه الجنبات المظلمة بعد رحلة شاقة كادت تنتهي بإقرار دعائم الفلسفة الطبيعية والفلسفة الرياضية والميتافيزيقا، فوجدتها أكثر وعورة وأشد عسراً.

المعرفة ووسائلها: الحقيقة ما هي؟ أهي نسبية أم مطلقة؟ ممكنة أم مستحيلة؟ هل العقل بقواه الخاصة بمقدوره أن يبلغها؟ أم لا مناص من عون خارجي ينير الطريق أمامه، وحي إلهي يعينه على الكشف عنها في ضيائها الناصع؟ هل العقل خدعة نتوهم وجودها وليس يوجد غير الحواس توقفنا على العالم المادي الذي لا وجود غيره؟ أم هو موجود يستعين بالحواس تزوده بالإحساسات التي بدونها لا سبيل إلى تكوين معرفة عقلية؟ أم أن الحس والعقل كلاهما تضليل وتشويه للحقيقة في كمالها الذي لا يقبل التجزئة، والمعرفة الحقة هي نوع من الإلهام أو الكشف القلبي أو الحدس؟

والأخلاق الإنسانية: ما الخير أو الواجب أو الضمير وما قانونه؟ هل الخير عام نتفق عليه، أم نسبي نتفاوت في تصوره؟ أهو فطري نرثه عن الأسلاف، أم مكتسب نتلقاه بالتربية؟ وبتعبير آخر هل الإنسان مدني بطبعه أم همجي يلتزم الأخلاق بدافع المنفعة لا غير؟

وبذلك تتأذى الفلسفة من الأخلاق إلى السياسة. فتتساءل عن المجتمع كيف نشأ؟ وعن الشكل المثالي الذي ينبغي أن تكون عليه حياة الجماعة، والعلاقة بين الحاكمين والمحكومين، بين أفراد الأمة وبين الأمم المختلفة.

ثم الفلسفة الجمالية: ما الجمال؟ ما القبح؟ ما المعايير التي نقيس عليها جمال الشيء؟ ما الشروط التي ينبغي أن تتوفر في الشيء حتى ندعوه جميلاً؟ هل للقبح وجود؟ أم هو كما قال أفلاطون تضاؤل للكمال وبعد عن مثال المثل: الله الذي جمع في ذاته ثالوث الوحدانية والحق والجمال؟

تلك مشاكل اعترضت فكر الفلاسفة، وكونت محاولاتهم فيها جانباً خصباً من جوانب الفلسفة هو الجانب الإنساني الذي برز في تاريخ الفكر في عصره الذهبي في القرنين الثالث والرابع قبل الميلاد، حين تعاونت الحركة السوفسطائية مع سقراط على إنزال الفلسفة من السماء إلى الأرض (على حد تعبير "شيشيرون"). والحق أن العقل إذ يدرس ذاته، يكشف عن ميزة التفكير البشري الحقة، وهي ارتداد الفكر على نفسه، وهجومه على ذاته يمزق أستارها بعد أن يهجم على العالم الخارجي، كما فعل أوديب حين اجترأ على أبي الهول. ولكن أوديباً حل اللغز وأردى أبا الهول قتيلاً، فهل أحرز الفلاسفة النصر على أسرار الحياة الإنسانية ومشاكلها؟

أخشى أن أقول لا، فرغماً عن تقدم علوم النفس والاجتماع، ووفرة ما انكشف من قوانين الحياة الفكرية والنفسية، والتنظيم الاجتماعي

والتطور الخلقي، فإن مشاكل كبرى لا تزال قائمة على صخرة أبي الهول العاتية، ترتطم بها مختلف الفلسفات، فتهوى عند قاعدتها، أو تتراجع إلى مشاكل أخرى تكب عليها:

ما العلاقة بين الروح والجسد؟

ما مصير الروح بعد فناء الجسد إن كانت هنالك روح وإن صح أن ثمت فناء؟

هل الكون متناسق في بنائه، متجه إلى غاية؟ أم هو مجموعة هو جاء من الذرات المرتعشة في فضاء لا نهائي؟

ما جوهر هذا البناء؟ وما الغاية من هذا الكون؟

هل الكون مادة صماء لا تنطوي على أي فكر؟ أم هو مظهر خارجي لحكمة كامنة، تتكشف يوماً بعد يوم، وتنمو عاماً بعد عام، حتى يكتب لها الغلبة في آخر الأمر على قوى المادة الصماء؟

ما مدى الحرية التي يمكن أن يدعيها الإنسان إزاء حتمية القضاء والقدر؟ هل في الكون اعتبار للخير والشر؟ أم الخير والشر أحكام خلقية ابتدعها الإنسان وليس في الكون لها أي اعتبار؟

يقول الأستاذ "برتراند رسل" الفيلسوف والرياضي الإنجليزي: "تلك أسئلة تسألها الفلسفة، وقد أورد لها مختلف الفلاسفة مختلف الإجابات.

ولكن يظهر أنه سواء أمكن أن نجيب على هذه الأسئلة أم لا، فإن إجابة الفلسفة لا يمكن البرهنة على صحتها. ولكن مهما كان الأمل ضعيفاً في الوصول إلى الإجابة، فإن مهمة الفلسفة أن تستمر في النظر في مثل هذه الأسئلة، وأن تشعرنا بأهميتها، وأن تختبر جميع مقدماتها، وأن تحافظ على بقاء الاهتمام بالتأمل في الكون حياً، ذلك الاهتمام الذي يحتمل أن يخمد إذا ما حصرنا أنفسنا في دائرة المعرفة اليقينية فحسب"[١]

وأزيد أن طبيعة العقل البشري تتنافى مع الفراغ، فهو يأبى الوقوف عند حد، ولن يفتأ يتساءل، ويحاول انتزاع الإجابة حتى يرضى أو يقنع، ولن يرضى أو يقنع لأن كل علم جديد يثير تساؤلاً جديداً، وكل معرفة تكتسب تستفز مطالب كانت مستكنة، وكل نظرية تصاغ تبعث على الشك والنقد. وهذا هو سر ما تنطوي عليه العقلية الفلسفية من قلق يحتدم أحياناً حتى ليبلغ بصاحبها حد اليأس، ولكنه اليأس النبيل الذي يحمله على التسليم بأن المجهول أكثر بكثير من المعلوم، وأن قيمة الإنسان في سعيه الدائب إلى المعرفة، وازدرائه السعادة التي تقوم على الجهل والغفلة.

[١] مشاكل الفلسفة ترجمة الزميلين عماد الدين إسماعيل وعطية هنا.